ذكر فتنة المنافقين وبعض أخطارهم

ذكر في المباحث السابقة وبخاصة في المقدمة وفي الفصل السابق الذي تحدث عن صفات المنافقين، ذكر شيء من هذه الأخطار والفتن على وجه الإجمال .

وفي هذا الفصل أذكر شيئًا من التفصيل والبيان لما أجمل سابقًا، فأقول وبالله التوفيق: إن أخطر ما في فتنة المنافقين فتنتهم لأنفسهم، وتعريضها لها بالعذاب في الدرك الأسفل من النار، وفتنتهم للمسلمين، بما يحدثونهم من فتنة وفساد كبير وبلاء، حيث إنهم ينخرون في قواعد هذا الدين من داخله، على حين جهل أو غفلة من المسلمين، ودون أخذ الحذر والحيطة منهم، لأنهم يظهرون الإسلام وحب الإسلام، وهنا يحصل الانخداع بهم وعدم الحذر منهم.

ولذا فصل الله ﷻ صفاتهم، وحذرنا من عداوتهم وفتنتهم، فقال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون: ٤]، والوقائع تثبت يومًا

بعـد يوم أن نكبة الأمة بالمنافقين تسـبق كل النكبات، وأن نكايتهم فيها وجنايتهم عليها تزيد على كل النكايات والجنايات؛ فالكفر الظاهر على خطره وضرره يعجز في كل مرة يواجه فيها أمة الإسلام أن ينفرد بإحراز انتصار شامل عليها، ما لم يكن مسنودًا بطابور خامس من داخل أوطان المسـلمين، ويتسمى بأسماء المسلمين، يمد الأعداء بالعون، ويخلص لهم بالنصيحة، ويزيل من أمامهم العقبات، ويفتح البوابات.

رأينـا ذلـك في عصرنا وسـمعنا عنه قبل عصرنا؛ فمنـذ أن افتتح (ابن سـلول) طريق النفاق، سـارت فيه من بعده أفواج المنافقين عبر التاريـخ، وفي عصرنـا الراهن لا تخطـئ العين ملامح النفـاق الظاهر المتظاهر مع الكافرين في القضايا الكبرى من قضايا المسلمين)[1].

ومن أشـد وأخطـر الفتـن التي يمارسـها المنافقـون في مجتمعات المسلمين ما يلي:

١ - فتنة القضاء على الدولة الإسلامية وتمكين الكفار منها:

لـو تأملنـا التاريخ الإسـلامي منـذ عهـد الرسـول ﷺ، ومرورًا بحـروب الردة، ومقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومقتل عثمان رضي الله عنه، ثم توالي الفتن على المسـلمين، وسـقوط دولهم إلى عصرنا الحاضر، لرأينا

(١) انظر مقال (جهاد المنافقين) مجلة البيان عدد (١٧١) د. عبدالعزيز كامل.

أن ذلـك قد تـم على أيدي بعض المنافقين، الذيـن تحالفوا مع الكفار، ومهدوا لهم دخول البلاد، فحري بمن هذا جرمه وهذه فتنته أن يُحذر ويُتقى، وأن يفضح ويقصى، ولا يمكّن له في بلاد الإسلام. وعن فتنة المنافقـين في التاريخ الإسـلامي يتحـدث الدكتـور عبدالعزيز كامل، فيقول حفظه الله تعالى:

(لا تعجـب! فالتاريـخ ليس خـيرًا كله، فهو وعـاء لما يقضى من القدر خيره وشره؛ فأقدار الخير يهيئ الله لها رجالًا عظماء شرفاء؛ فبعد الرسـل صلوات الله وسـلامه عليهم كم من رجال تألقوا في التاريخ، بل تألق التاريخ بهم، وأما أقدار الشر فقد خلق لها الأشرار، ولم يعدم التاريـخ منهم من يعكّـر صفو صفحاته العظيمـة، ومن يجرف مجرى سـيره نحـو الانحـدار، لا نتحدث هنا عـن التاريخ الإنسـاني بعامة؛ فهـذا ليس موضوعنا، ولكـن عن التاريخ الإسـلامي خاصة؛ حيث كان ذلك التاريخ مشـطورًا بين نصيبين: نصيب للصادقين السـائرين عـلى المحجة البيضاء، ونصيب للكاذبين الخاطئين من حزب المنافقين أو ضحاياهم من العصاة الفاسقين.

أما المنافقون منهـم فكانوا ولا يزالون كالورم الخبيث الكامن في الجسـد بانتظار لحظة من الوهن والإنهاك، حتى يفرض نفسـه منتشرًا بالداء والبلاء.

تعالوا نستنطق التاريخ، ونستخرج شهاداته، ونقلب بعض ملفاته وصفحاته، لعلنا نستحضر بعض ملامح الواقع العملي لقوله تعالى عن المنافقين في كل زمان ومكان: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

منافقو العرب وفتنة الردة:

أبو بكر رضي الله عنه هو أعظم عظماء هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، لا يشك في ذلك مؤمن، ولكن انظر لهذا العظيم الكريم: من شغله واستغرق جهده في سني حكمه القصيرة، حتى لم تكد همومه تخرج عن حدود الجزيرة إلا قليلًا؟! إنهم فئام ممن كتم نفاقهم وأسكت صوتهم أيام تنزل الوحي؛ حيث كانوا دائمي الخوف وهذا سر انقماعهم من تنزل القرآن بأخبارهم وأسرارهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، فلما أمنوا تجدد ذلك التنزيل بوفاة الرسول ﷺ، استعلنوا بالنوايا، وأظهروا الطوايا، وكشفوا عن نفاق كان مستورًا، وجهروا بالامتناع عن ركن الإسلام الثالث، بأن منعوا الزكاة التي كانوا يؤدونها كرهًا على عهد الرسالة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٨]، وبدأت معالم فتنة تولى كبرها

مبكـرًا أعراب منافقون في المدينة وحولها، كان القرآن قد حذر منهم: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[التوبة: ١٠١]، بدأت هذه الفتنة صغيرة في إطار هؤلاء المحيطين بالمدينة، حتى توسعت كنار الهشيم بعد أن تحولت من نفاق مستتر إلى ردة معلنة، اسـتوعبَ أرجاء الجزيرة حتى لم يبق على الإسلام في تلك الجزيرة، التي وحَّدها محمد ﷺ إلا أهل المسجدين.

وشـاء الله تعالى أن يطفئ تلك النار التي شـبت في أرجاء الجزيرة بثبات بدأ به رجل واحد، واسـتطاع أن يختار للمرحلة ما يناسبها من الحسم والحزم، وطارد أبو بكر المرتدين في أرجاء الجزيرة، حتى ردها كلها إلى الإسـلام، ولا ندري أي مسـتقبل كان يمكـن أن يكون لهذا الدين لو ترك أبو بكر هؤلاء المنافقين الذين تحولوا إلى مرتدين؛ ليعبثوا في ثوابت الدين ويعيثوا فسادًا داخل حصن الإسلام والمسلمين.

وجاء بعد الصديق عمر الفاروق ﷺ، الذي خنس النفاق في عهده وانقمع؛ وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وهو الذي كان إذا سلك فجًّا سلك الشيطان فجًّا غيره؟!

ومع هذا؛ فقد جرى في شـأن مقتله لغط بسـبب شـبهات ثارت حول تواطؤ ما حدث بين قاتله المجوسي أبي لؤلؤة، ورجلين آخرين،

حيث ترجح لدى ولد الفاروق (عبيد الله بن عمر) رضي الله عنهما أنهما تآمرا مع أبي لؤلؤة على قتل أبيه، وكان أحدهما من أمراء الممالك الفارسية ويدعى (الهرمزان)، وقد أعلن إسلامه بين يدي عمر رضي الله عنه، والآخر يدعى (جفينة)، وقد مات على النصرانية، وقد باشر عبيد الله قتلهما بنفسه ثأرًا لأبيه[1]...

وانجلت الظلمة بعد اغتيال الفاروق بإشراق عهد ذي النورين، وشرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه في إكمال ما بدأه أسلافه من تمكين للدين في الداخل ونصرته في الخارج، وتعززت في عهده رايات الفتوح، حتى سارت قافلة الإسلام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه لا تخلو من هنات البشر، ولكن بشرًا آخرين أوغلوا في الغلو، وتنطعوا في طلب الكمال الذي لم يقتربوا هم من حده الأدنى، بل لم يلج بعضهم دين الإسلام أصلًا؛ حيث كشف النفاق عن حزبه الجديد، ممثلًا في عبد الله بن سبأ وجماعته؛ حيث أظهر ذلك الرجل اليهودي الملقب بـ (ابن السوداء) الإسلام في زمن عثمان، وانطلى نفاقه على كثيرين، بل قل: اجتمع على نفاقه الكثيرون، فبدأ ينشط في الشام والعراق ومصر زاعمًا النصح للمسلمين، وهو لا يريد إلا تفريق صفوفهم، وبث الخلاف بينهم، وتجمع حوله أشباهه من المنافقين، فكان منهم نفر ممن نزلوا مصر واستوطنوها مع الفاتحين، ونفر آخر كانوا في العراق

(١) انظر البداية والنهاية ٧/ ١٥٤.

وآخر في الشام، وبدأ المنافقون فتنتهم بالتنادي بلا حياء بعزل من كان يستحي منه رسول الله ﷺ.

وتجمع رعاع آخرون ممن لا يفقهون حول المطالبة بعزل عثمان، بل تأثر بذلك بعض الصادقين من المؤمنين الذين شوشت عليهم دعايات المنافقين وتهويلاتهم، وصدق الله إذ قال عن شأن المسلمين مع المنافقين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[التوبة: ٤٧]، لما قتل المنافقون من عصابة ابن سبأ عثمان رضي الله عنه؛ وبويع علي رضي الله عنه بالخلافة، باتت ظلال المصيبة مخيمة على الأجواء، واختلطت مشاعر الحزن بمشاعر الغضب، حتى استحالتا إلى رغبة في الانتقام، ثم عزيمة على الثأر. ولولا نفاق هؤلاء وتسترهم بالإسلام مع اختلاطهم في الناس لما أشكل أخذهم والثأر منهم، ولكنه النفاق الذي يخدع ويخادع، ويخلط الأمور كلما كادت أن تصفو...

ولم يكن ممكنًا لأحد أن يتصور أن تبلغ خيانة المنافقين على الأمة إلى أن تنشب مثل هذه الفتن والمعارك بين المسلمين، وفيهم من سادات الصحابة والتابعين.

ومن الفتن التي تولدت عن الفتنة الأولى ثم ما تلاها من أحداث: ظهور فرقة الشيعة؛ فقد نظر هؤلاء إلى علي رضي الله عنه على أنه يمثل موقف بيت النبوة، وأن كل من خالفه فقد خالف هدي النبوة وأمانة

الرسالة، وبدأ هذا الموقف عاطفيًّا، ثم تطور مذهبيًّا حتى اجتمع حوله فرقة ذات طموحات سياسية، وكانت نشأتها حين انفصل الخوارج عن جيش علي، فرأى من بقي منهم أنهم هم وحدهم شيعة علي ومن ثم شيعة أهل البيت، ولم يكونوا وقتها يطعنون على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن عمل فيهم النفاق عمله أيضًا؛ حيث ظهر فيهم من يفضل عليًّا على أبي بكر وعثمان بمجرد الهوى، ثم تطور إلى رفض خلافتهما وشتم من يراها شرعية، ثم تطور الأمر إلى القول بعصمة آل البيت والأئمة الإثني عشر منهم، وقد أسهم منافقو الفرس الذين فتح الفاروق عمر بلادهم ثم أكملها عثمان رضي الله عنه بعد الشيخين أسهم هؤلاء المجوس في بث العداوة والفرقة في الأمة بالطعن على السلف والتآمر ضدهم، وكان ذلك قد بدأ بقتل عمر رضي الله عنه على يد أبي لؤلؤة المجوسي، ثم تحول إلى تبني ذلك المذهب الشيعي، الذي لا يزال أخطر مذهب مناوئ لمذهب السلف وطريق أهل السنة والجماعة اعتقاديًّا وسياسيًّا.

دور المنافقين (العبيديين) في استقدام الصليبيين:

تظاهر رأس من رؤوس المنافقين بالتشيع، وكان يدعى أبا الخطاب ابن الأجدع، وهو الذي نسبت إليه الفرقة الخطابية، وسلك طريق النفاق المعتاد بادعاء الصلاح، فصاحب جعفر الصادق في حياته، وادعى أنه وصيه بعد مماته برغم تبرؤ جعفر منه، وتتلمذ على أفكار

ذلـك المنافق زنديق آخر هو ميمون القـداح المنحدر من أصول يهودية، وعمد هذا الآخر إلى الدعوة للتشيع على الطريقة الإسماعيلية المنحرفة، وتحركـت بإيحاء مـن تلك الأفـكار الحركـة القرمطية، التـي تبنت نشر المذهب الإباحي الداعي إلى إباحة كل المحرمات وإسقاط الواجبات.

وكان لميمـون القداح حفيد يدعى (سـعيد)، ادعـى أنه أحد أبناء الأئمة المستورين من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق؛ فزعم على هذا أنه علوي يسـتحق الخلافة!! وقد بدأ يدعو إلى نفسـه بالخلافة بعد أن سـمى نفسه (عبيد الله)، وشايعه جمع من المنافقين على ذلك، وأشاعوا أنـه حقًّا مـن العلويين مـن ولد فاطمـة ﷺ، وتطورت دعوتـه بعد أن كسـبت الأنصار، فأقاموا الدولة (الفاطمية) بالمغرب، وكان إخوانهم القرامطة والإسماعلية قد أقاموا دولًا قبل ذلك في البحرين واليمن.

واسـتمرت دولة العبيديين في المغرب من عام ٢٩٧ هـ حتى عام ٣٦٣ هـ، حيث انتقلت بعد ذلـك إلى مصر في عهد الخليفة العبيدي (المعز لدين الله)، فأقام لدولة النفاق الشيعي كيانًا بمصر.

وقـد كان هؤلاء العبيديـون الخبثاء طيلة عهـود يقربون الكفار، وبخاصـة النصارى، ويتخـذون منهـم البطانة ويولونهـم المناصب، ويكثـرون مـن الزواج منهـم، وكانت هذه البطانة سـببًا أساسـيًّا من أسباب استفحال أمر النصارى في الشام بعد سيطرة العبيديين عليها،

حتى آل أمر الشام إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين، بعد أن فرَّ أمراء العبيديين منها، وتركوها لقمة سائغة لهم حتى احتلوا القدس، وسيطروا على المسجد الأقصى، ورفعوا الصلبان على مآذنه!.

النفاق وسقوط الخلافة العباسية:

تساهل آخر خلفاء العباسيين الخليفة المستعصم بالله، في اتخاذ بطانة من المنافقين؛ فقد قرب إليه أحد الروافض الخبثاء، وجعله وزيره ومستشاره وهو: محمد بن أبي طالب مؤيد الدين العلقمي، وكان هذا الزنديق راغبًا في تحويل الخلافة عن أهل السنة إلى الشيعة، ولما كان الشيعة وقتها في حالة من الذلة لا تسمح لهم بذلك، فقد عزم ذلك المنافق المتسمي بالإسلام أن يستخدم لهذه الغاية الكفار الصرحاء، فأغرى ملك الدولة الوثنية التتارية (هولاكو) بغزو دولة الخلافة العباسية، وكاتبه في ذلك، فاستجاب هولاكو، وطلب من ابن العلقمي أن يمهد لذلك أولًا من طرفه، بأن يستغل قربه من الخليفة لكي ينصحه بتسريح أكبر عدد ممكن من الجيش العباسي.

وبالفعل استطاع العلقمي أن يقنع الخليفة بتسريح خمسة عشر ألفًا من فرسان الجيش بذريعة خفض النفقات، ولما أعفوا من الخدمة في جيش الخلافة أمرهم الوزير المشؤوم بأن يغادروا بغداد، ويبحثوا عن أرزاقهم خارجها، وبعد ذلك بمدة أقنع الخليفة بتسريح عشرين

ألفًا آخرين، مدعيًا أمامه أن البلاد في أمان ولا تحتاج إلى كل هؤلاء الجنود، وظل هذا الخبيث وغيره من المنافقين سائرين على هذه الطريقة في إضعاف الدولة العباسية عسكريًّا حتى استيقن بأنها قد بلغت أشد حالات الضعف؛ فقد أصبح جيشها لا يزيد عن عشرة آلاف جندي بعد أن كانوا في آخر عهد الخليفة السابق نحو مئة ألف جندي.

وعندما أنجز تلك المهمة القذرة في غفلة الولاة اللاهين عن جهاد المنافقين، أوعز العلقمي إلى هولاكو بأن يقدم إلى عاصمة الخلافة ولا يضيع الفرصة، فدخل التتار بغداد وقتلوا الخليفة شر قتله، وفتح الوثنيون التتار أبوابًا من الجحيم على أهل بغداد، فأباحوها أربعين يومًا يعملون القتل فيها ويشيعون الدمار، حتى أحصي القتلى في تلك المدة بألفي ألف نفس! وكوفئ الوزير (ابن العلقمي)، فعينه هولاكو وزيرًا في الحكومة الجديدة على أطلال بغداد التي خربها النفاق.

المنافقون وإسقاط الخلافة العثمانية:

مهما قيل عن خلافة آل عثمان من الأتراك وما كان عليها من المآخذ، فإن التاريخ يحفظ لهم أنهم حافظوا على وحدة العالم الإسلامي في كيان سياسي عالمي استمر ما يزيد عن خمسة قرون، صدوا خلالها عن المسلمين الحملات الشرسة من كفار الشرق والغرب من الروس والأوروبيين.

ولكن تلك الخلافة التي أذلت كبرياء طواغيت العالم في العديد من الملاحم، تكرر معها في أواخر عهدها أمر قريب مما حدث مع الدولة العباسية، حين استوزر الخلفاء وقربوا عناصر من المنافقين الحاقدين على الإسلام الحاملين لأسماء المسلمين؛ فقد سيطر على مقاليد الأمور في تركيا في أواخر عهد الخلافة شرذمة من منافقي اليهود، الذين كانوا قد قدموا إلى تركيا من أسبانيا بعد أن طردهم النصارى من هناك بعد انتهاء حكم المسلمين في الأندلس، وتكون تحالف غير مقدس من اليهود الصرحاء والنصارى في الخارج، مع المنافقين الأتراك في الداخل سواء كانوا من أصول تركية، أو من هؤلاء الدخلاء المهاجرين الذين كانوا مع أعداء الأمة قلبًا وقالبًا.

واللافت هنا أن عصابة المنافقين هؤلاء الذين كان يطلق على أسلافهم: يهود الدونمة؛ لم يتحركوا في بلاد الإسلام إلا تحت مسمى الإسلام، ويعجب المرء: كيف أمن المسلمون لهؤلاء أن يتركوهم على هذه الحال من الترقي في مناصب الدولة وهم يعلمون خبثهم، ولم تكن لهم دلائل صدق في الإيمان حتى يصلوا إلى مناصب الوزراء وقادة الجيوش.

ومع مجيء القرن العشرين كان التنسيق بين اليهود وبين المنافقين الأتراك قد بلغ مداه، وبخاصة عندما رفض السلطان العثماني عبدالحميد أن يعطي اليهود فلسطين ليقيموا عليها دولة لهم.

فعندها عزم زعيم الصهيونية الحديثة (تيودور هرتزل) على إزاحة تلك العقبة أعني الخلافة، ليقيم اليهود على أنقاضها دولة للمنافقين المرتدين في تركيا، ثم دولة لليهود الظاهرين في فلسطين، ولم يكن بوسع هرتزل ولا من حوله من المنظمات اليهودية المدعومة بنصارى أوروبا أن يصلوا إلى هذين الهدفين لولا أولئك المنافقون المتسمون بأسماء المسلمين داخل تركيا.

فقد تأسس المحفل الماسوني المسمى بـ (محفل الشرق العثماني) في تركيا، ليكون ناديًا للضرار يضم في أعضائه كل عدو لدود للإسلام، وشكل المنافقون الأتراك أيضًا جمعية (الاتحاد والترقي) وحزب (تركيا الفتاة)، ليضموا في أعضائها عناصرهم من القادة في الجيش وغيره من مرافق الدولة، وبدأ الجميع يتحركون في غفلة من الساسة والعلماء وأهل الفكر من المسلمين، الذين غفلوا أو تغافلوا عن حكم الله في إبعاد المنافقين وجهادهم والغلظة عليهم، حتى انتهى الأمر إلى إسقاط الخلافة العثمانية وإلغاء منصب الخليفة على يد أكبر رموز النفاق في القرن المنصرم: مصطفى كمال أتاتورك؛ وعندها خلع المنافقون رداء الإسلام، وارتدوا ثوب الردة المسماة بـ (العلمانية)، تلك الراية الكفرية الفضفاضة التي أظلت تحت جناحها كل جبار عنيد.

ولكن تلك الردة أعني العلمانية أبت أيضًا أن تستأنف مسيرتها إلا على الطريق نفسه، الذي سار عليه ابن سلول وابن سبأ وميمون القداح والعلقمي وسبتاي زيفي وكمال أتاتورك.

إنه طريق النفاق، وهو الطريق الذي ظل موصولًا إلى يومنا هذا؛ حيث يمكننا أن نقول: إن مسيرة الذل التي تسير فيها الأمة منذ أكثر من قرن من الزمان لم يذلل سبلها ويمهد طرقها إلا طوائف المنافقين، الذين اتخذوا من الكافرين أولياء، فأسلموهم أمة الإسلام وأخضعوها لهم، ومكنوهم من تركيعها عسكريًّا واستلابها حضاريًّا، والتحكم فيها سياسيًّا واقتصاديًّا في غيبة سلطان الحكم بدين الإسلام الذين عملوا قبل الأعداء على محاربته ومحاربة أهله بالأصالة عن أنفسهم حينًا، وبالنيابة عن الأعداء أحيانًا[1].

وفي واقعنا المعاصر رأينا كيف أن الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق لم يتم إلا عن طريق المنافقين النفعيين من الرافضة الباطنيين والعلمانيين، المتنكرين لدينهم، الهائمين في حب الغرب وأفكاره وأخلاقه، الراكنين إلى الدنيا ومناصبها ولو على حساب الدين وأهله.

(١) عن مقال (خطر النفاق حقيقة أم خيال) مجلة البيان العدد (١٧٢) ص ٦٠ باختصار وتصرف يسير.

٢- فتنة الخداع والتلبيس:

وهي من أشد أنواع الفتن وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي تسلط فيه المنافقون على أكثر ديار المسلمين، وتمكنوا من وسائل التأثير والإعلام، التي تعمل ليل نهار في خداع الناس باسم الإسلام.

وإن من المنافقين من يكون قد تمرن وتمرد على النفاق، بحيث ينخدع له كثير من المسلمين لخفاء نفاقه ونعومته، كما انخدع بهم بعض الصحابة كما في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، بل إن من هؤلاء من تمرن على النفاق، حتى خفي حالهم على الرسول ﷺ، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]، ولذا كان فضحهم وجهادهم من أفضل أنواع الجهاد.

فالمنافقون أصحاب تذبذب وتقلب، وأرباب خداع وتلبيس، فيتكلمون بمعسول الكلام، وفصيح الخطاب، ويظهرون للناس في هيئة حسنة، ومظهر جذاب، فربما انخدع لهم الفئام من المسلمين، فمالوا إليهم وأصغوا إلى قولهم وتدليسهم، قال تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

إن هذا التلون والتذبذب يجعل خطرهم كبيرًا، وشرهم مستطيرًا، حيث يخفون كفرهم وضلالهم، ويتظاهرون بالإيمان والاهتداء.

ولذا: خفي على كثير من المسلمين حال بعض الزنادقة (المنافقين) في القديم والحديث، وكما قال الذهبي رحمه الله في شأن الحلاج: (فهو صوفي الزي والظاهر، متستر بالنسب إلى العارفين، وفي الباطن: فهو من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل، كما كان جماعة في أيام النبي ﷺ منتسبون إلى صحبته وإلى ملته، وهم في الباطن من مردة المنافقين، قد لا يعرفهم النبي ﷺ ولا يعلم بهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة: ١٠١]، فإذا جاز على سيد البشر أن لا يعلم ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنوات، فبالأولى أن يخفى حال جماعة من المنافقين الفارغين عن دين الإسلام بعده ﷺ على العلماء من أمته[1].

ومن خفاء نفاق بعض المنافقين أن يوجد بعض المسلمين -ومنهم بعض طلاب علم- من يحسن الظن بهؤلاء المنافقين.

بمجرد تلبيسهم ببعض الأخلاق النفعية أو جمال بعض عباراتهم وتلطفهم بها، فينسيه هذا فسادهم، وإفسادهم وخبث طويتهم.

وهذا من خداع المنافقين الذي حذرنا الله منه في قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[المنافقون: ٤].

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٤٣.

ومن صور فتنة الخداع والتلبيس ما يلي:

أ- تسويغهم عزل الإسلام عن الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها من شؤون الحياة بقولهم: إن دين الإسلام دين الصدق والنظافة والتقوى، وكل هذا لا يتفق مع ألاعيب السياسة ومهاترات السياسيين وأكاذيبهم؛ فلهذا ينبغي أن يترفع بالإسلام عن دهاليز السياسة المتلوثة؛ كل ذلك بزعمهم حماية للإسلام ومحافظة عليه من هذه اللوثات.

ومع ذلك فقد يوجد من ينخدع بمثل هذا الكلام الفارغ الفاجر، ومن ثم يسقط في فتنة التضليل والتلبيس.

ب- ومن صور الخداع والتلبيس التي قد ينخدع بها بعض السذج من الناس ويسقطون في فتنتها: ما يرفعه المنافقون في أكثر بلدان المسلمين في وجه أهل الخير والإصلاح والجهاد من أنهم دعاة شر وإرهاب وفساد، وما تجلبه وسائل الإعلام المختلفة وتدندن به على وصفهم ورميهم بهذه الأوصاف الظالمة حتى تأثرت بذلك بعض الأدمغة المخدوعة، فسقطت في فتنتهم، ورددت معهم هذا الظلم والخداع، ومن ثم تعرض أهل الخير للأذى والنكال باسم المصلحة الشرعية ومكافحة الإرهاب والفساد؛ وذلك بعد أن تهيأت أذهان المخدوعين من المسلمين لهذا الخداع والتلبيس.

وصور التلبيس والتضليل من المنافقين كثيرة جدًا؛ والمقصود الحذر من فتنتها والسقوط في شباكها، والتفطن إلى أن المنافقين يستخدمون الإسلام دائمًا ويترسون به في تمرير ما يريدون من أغراضهم الخبيثة، فهذا شأنهم دائمًا: التحريف، والتلبيس، وإثارة الشبهات؛ مستخدمين وسائل الإعلام الرهيبة في خداع الناس وتضليلهم.ورضي الله عن عمر بن الخطاب حيث قال: (لست بالخب ولا الخب يخدعني). ويعلق ابن القيم رحمه الله على هذه المقولة فيقول: (فكان عمر رضي الله عنه أورع مِن أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدع)[1].

جـ- اهتمام الحكومات العلمانية ببعض المناسبات الإسلامية كالاحتفال بمولد الرسول ﷺ وهجرته، أو ليلة النصف من شعبان، أو الإسراء والمعراج... إلى آخر هذه المناسبات التي لا أصل للاحتفال بها شرعًا، وإنما هي من البدع المحرمة؛ ومع ذلك ينخدع بهذا التلبيس كثير من دهماء المسلمين ، وتتحسن صور أولئك المنافقين الذين يضللون الناس بهذا الخداع، ويبدون في أعين المخدوعين أنهم يحبون الإسلام ويغارون عليه، وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام وأهله، وهل يحب الإسلام ويعتز بالانتماء إليه من يرفض الحكم به والتحاكم إليه، ويبدل شرع الله المطهر بنحاتات الأفكار وزبالات الأذهان الجاهلة الظالمة؟ لا والله، إن مثل هذا يكذب في ادعائه حب دين

(١) الروح ص٢٤٤.

الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران: ٣١]، فهل يعي هذا المخدوعون المضللون؟.

د- ومما يلحق بالصور الآنفة الذكر من صور التلبيس ما يقوم به بعض المنافقين المحادين لشرع الله ﷻ من إقامة بعض المؤتمرات أو الندوات الإسلامية، ويدعون إليها بعض العلماء والدعاة فيستجيب من يستجيب ويرفض من يرفض، وكل هذا من باب ذر الرماد في العيون وتخدير دعاة المسلمين بمثل هذه الصروح الخبيثة، التي هي أشبه ما تكون بمسجد الضرار، الذي بناه المنافقون في عهد الرسول ﷺ، وادعوا أنه للصلاة وإيواء المسافرين في الليلة الشاتية المطيرة، فأكذبهم الله ﷻ وفضح نياتهم بقرآن يتلى إلى قيام الساعة نهي فيه الرسول ﷺ عن دخوله والقيام فيه، بل أمر بتحريقه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

فهل آن الأوان أن نعي مثل هذه الفتنة والخداع، فلا نستجيب لمثل هذه الدعوات، ولا نقوم في مثل هذه المؤتمرات أبدًا؟ بل قد آن الأوان

إلى أن تفضح مثل هذه اللافتات، ويحذر الناس من شرها والوقوع في فتنتها؛ ويبين لهم أنها ضرب من الخداع وصورة من صور النفاق الماكر الخبيث. يتحدث سيد قطب رحمه الله عن الصور المعاصرة لمسجد الضرار فيقول: (هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة، التي يتخذها أعداء هذا الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس ورائها وهي ترمي هذا الدين! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق!... وتتخذ في صورة شتى كثيرة..

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ

وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار، وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي ورائها نية خبيثة؛ وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة: ١٠٩].

فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسي الراسخ المطمئن. ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر لنشهد الحركة السريعة العنيفة في بناء الضرار. إنه قائم على شفا جرف هار. قائم على حافة جرف منها. قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار. إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق!. إنه ينهار! إنه ينزلق إنه يهوى! إن الهوة تلتهمه! يا للهول! إنها نار جهنم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة: ١٠٩]. الكافرين المشركين، الذين بنوا هذه البنية، ليكيدوا بها هذا الدين!

إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة المثيرة، ترسمه وتحركه بضع كلمات!. ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم، في مواجهة دعوات الكيد والكفر والنفاق! وليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد والضرار!. ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بُناته الأشرار وبُناة كل مساجد الضرار ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ١١٠].

قد انهار الجرف المنهار. انهار ببناء الضرار الذي أقيم عليه. انهار بهم في نار جهنم وبئس القرار! ولكن ركام البناء بقي في قلوب بناته، بقي فيها ﴿رِيبَةً ﴾[التوبة: ١١٠]، وشكًّا وقلقًا وحيرة. وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر. إلا أن تتقطع وتسقط هي الأخرى من الصدور!

وإن صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار. تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية. وهما تتقابلان في اللوحة العجيبة التي يرسمها التعبير القرآني الفريد.

وتتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان، فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة، حائر الوجدان، لا يطمئن ولا

يستقر، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار)[1].

ويذكر الشيخ السعدي رحمه الله بعض الفوائد من هذه الآيات التي تتحدث عن مسجد الضرار، فيقول: (في هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلًا تغيره النية، فينقلب منهيا عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

---

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١٠٧)-(١١٠) من سورة التوبة (باختصار).

obeikandl.com

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأمان كما أثرت في مسجد قباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان النبي ﷺ يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي: كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ أسس بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين)[1].

ومما يلحق بمسجد الضرار تلك المساجد التي بنيت على الشرك ومحاربة أهل التوحيد ونشر البدعة والخرافة وبث الأفكار التي تعارض الفهم الصحيح للإسلام.

وشبيه بهذه المساجد إنشاء المدارس العلمانية والتبشيرية والجامعات التي يغلب عليها الانحراف ونشر الإلحاد والزندقة، والقنوات الفضائية والمحطات الإذاعية والجرائد والمجلات ومواقع الشبكة العنكبوتية التي لم تؤسس على التقوى بل على الكفر ونشر الشبهات ومحاربة التوحيد وأهله.

والخطير في الأمر أن القائمين على هذه الأعمال المضلة، يسعون إلى إثبات شرعيتها بدعوة من يثق الناس بدينهم لافتتاحها أو العمل بها بصورة غير مؤثرة، بحيث تبقى الهيمنة والإدارة والقرار بيد المنافقين الذين أسسوها.

وهذا عين ما فعله المنافقون في المدينة، فقد بنوا مسجد الضرار، وحاولوا إضفاء الشرعية عليه بدعوة الرسول ﷺ للصلاة

(١) تفسير السعدي ١/ ٣٥٢.

فيه، فنهى الله ﷻ نبيه عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وهكذا الحال في مساجد الضرار المعاصرة يجب أن لا يقام فيها أبدًا.

تنبيه مهم:

كثر في الآونة الأخيرة في بعض البلدان لا سيما في بلاد الغرب الحديث عن مساجد الضرار - التي يجب اعتزالها - وعن صفاتها وغاياتها وبواعثها، وخاض الخائضون في المسألة بعلم وبغير علم.. وجنح بعضهم إلى الإفراط والغلو والتشدد؛ فحكموا على مساجد المسلمين لظنون وشبهات واهية ضعيفة لا ترقى إلى درجة الدليل بأنها مساجد الضرار، وأن الصلاة فيها لا تجوز..!

فانعكس ذلك سلبًا على أخلاق وسلوك وعبادة المسلمين، فتركت الجمعة والجماعات، وهجرت المساجد -على قلتها في بلاد الغرب- من المصلين.. حتى أصبح من المألوف على المسامع إن سألت أحدهم عن سبب هجره للمساجد والجماعات العامة -برغم مجاورته للمسجد- بأن يقول لك إنها مساجد الضرار، لا تجوز الصلاة فيها..!

وتولى الرد على هذه الشبهات الشيخ عبد المنعم مصطفى حليمة أنقل رده هنا باختصار عن موقع (منتدى مجالس الإيمان والدعوة).

قال وفقه الله:

(قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

ولكي يتضح المعنى جليًا لا بد من أن نذكر السبب الذي نزلت فيه هذه الآيات والأشخاص الذين نزلت فيهم، أطبقت كتب التفسير على أن هذه الآيات نزلت في رجل جند نفسه لحرب الله ورسوله، ولم يدع حربًا ضد رسول الله إلا وقد شارك فيها، وهو أبو عامر الراهب، وقد سماه النبي ﷺ بالفاسق، وكان مما فعله هذا الرجل أنه التجأ إلى هرقل ملك الروم يستنجده العون لقتال النبي ﷺ، فأرسل إلى أصحابه من المنافقين في المدينة، وكان عددهم اثنا عشر رجلًا أن يبنوا له مسجدًا ضرارً وإرصادًا؛ أي ترقبًا وانتظارًا لقدومه مع جيش الروم، يستخدمه كقاعدة لحرب الله ورسوله والمؤمنين، إضافة إلى البواعث الأخرى التي ذكرتها الآية الكريمة.

وتتلخص بواعث وغايات ومهام مسجد الضرار، كما ذكرتها الآيات القرآنية في أربعة نقاط، وهي:

أولًا: الإضرار والضرر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾[التوبة: ١٠٧]، فكلمة ﴿ضِرَارًا﴾ جاءت بصيغة المفعول لأجله؛ أي ما حملهم على بناء المسجد شيء إلا من أجل إنزال الضرر والأذى بالمسجد المجاور لهم الذي أسس على التقوى من أول يوم من إنشائه؛ وهو مسجد قباء وقيل هو مسجد النبي ﷺ، ولإنزال الضرر كذلك بالجماعة المسلمة المؤمنة التي على رأسها النبي صلوات ربي وسلامه عليه.

فهم ليس لهم رغبة وهدف من وراء بناء هذا المسجد سوى الضرر والإضرار، وطلبه والسعي لتحقيقه.

ثانيًا: من الغايات كذلك التي بني لأجلها مسجد الضرار الكفر بالله ورسوله، وتقوية للكفر وأهله، ومحاربة لله ورسوله وجماعة المؤمنين، وذلك باستخدامه كقاعدة للمنافقين ومأوى لهم، يحيكون فيه المؤامرات على الدولة المسلمة الفتية، وكذلك لكي يكون مقرًّا لأبي عامر الكافر ومن معه من جند الروم عندما يصلون إلى المدينة المنورة، ليخرجوا النبي ﷺ، وأصحابه منها، فهم بنوا المسجد وأرادوا منه إضافة للضرار الكفر بالله ورسوله والانتصار للكفر وأهله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾[التوبة: ١٠٧].

ثالثًا: من البواعث والغايات التي أرادوها من وراء بنائهم لمسجد ضرار-إضافة لما تقدم- تفريق جماعة المسلمين إلى جماعات؛ ليقللوا

عـدد الذيـن يجتمعـون للصـلاة في مسـجد رسـول الله ﷺ، وكذلك مسجد قباء، فيه ما فيه من إضعاف للشوكة، وتشتيت للكلمة، وإبعاد للمسـلمين عن التأثر والتوجيه المباشر من شـخص النبي ﷺ. إضافة إلى التقليل من سـواد المسـلمين في الجماعة الواحـدة، الذي يعد ذلك أي تكثـير السـواد في الجماعة الواحدة - مطلبًا مـن مطالب الشريعة، ومقصدًا مهمًّا من مقاصد صلاة الجماعة.

وفي قولـه تعـالى: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبـة: ١٠٧]، قال الشـوكاني: لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسـجد قبـاء فتقل جماعة المسلمين، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى.

رابعًـا: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [التوبـة: ١٠٧]؛ أي ترقبًا وإنظارًا لمقدم من حارب الله ورسوله من قبل أن يبني مسجد الضرار، وهو أبو عامر الفاسق الذي جند نفسه لمحاربة الله ورسوله، وكان قد خاض الحروب العديدة ضد النبي ﷺ، قبل أن يبني مسـجد الضرار. والذي كان قد وعدهم ومناهم بأنه سيأتي ومعه جيش الروم ليخرج النبي ﷺ، وأصحابه من المدينة!.

قلـت: هذا المسـجد بصفاتـه وغاياتـه وأهدافه الهدامـة الخطيرة -الآنفة الذكر- هو مسـجد الضرار، وهو المسجد الذي أمر النبي ﷺ بهدمه وحرقه، ونهى عن الصلاة فيه..

فهل هكذا هي المساجد التي يشار إليها في زماننا بأنها ضرار..؟!!

مسجد الضرار الذي أمر النبي ﷺ بهدمه وحرقه، واعتزاله -من خلال أهدافه وغاياته وبواعثه المبيتة من قبل- لم ينشأ لغرض العبادة أو التعبد، وإنما هو في حقيقته معقلًا وقلعة عسكرية من قلاع الحرب والكفر والنفاق، ينطلق منها لحرب الله ورسوله.. فهل هكذا هي المساجد في زماننا التي يشار إليها بأنها ضرار..؟!!

من خلال ما تقدم نقول: أيما مسجد يكون الباعث على بنائه الغايات والأهداف الثابتة لمسجد الضرار الأول - الآنفة الذكر - أو بعضها، أو إحداها.. فهو مسجد الضرار الذي يجب اعتزاله وعدم الصلاة فيه، لقوله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٨]؛ أي لا تقم فيه للصلاة...

مسألة: هل من الممكن أن نحكم في زماننا على المساجد بأعيانها بأنها ضرار؟

الجواب: نعم يمكن ، يحكم على مسجد بعينه أنه مسجد ضرار، ولكن بشرطين، هما:

أولًا: أن يتم التثبت بيقين -وليس بالظن- أن هذا المسجد كان الباعث على بنائه وقيامه تحقيق الغايات -أو بعضها- التي بني لأجلها مسجد الضرار الأول.

فـإذا انتفـت المقدرة على التثبـت والتحقق من ذلـك، أو جهلت الغاية من بناء هذا المسجد بسبب وفاة من قام على بنائه أو غير ذلك.. لا يجوز أن يحكم عليه بأنه ضرار.

ثانيًا: أن يقوم بمهمة التحري والتثبت من واقع المسـجد المشـار إليـه، ومـن ثم بيـان الحكم عليـه من العلـماء العاملـين الأتقياء؛ لأن البحث في واقع المسجد - هل بني على الضرار أم لا؟

من الأمور الخفية التي تتعلق بالنيات والبواعث على البناء، ومن ثـم الإلمام بالقرائـن والأدلة الدالة على تلك البواعـث والنيات.. كل ذلـك وغـيره يحتاج إلى بحـث واجتهـاد وتثبت ومعرفـة دقيقة بواقع المسـألة وبالأدلـة الشرعيـة عليها، ومن ثـم لا نرى لعـوام الناس أن يشغلوا أنفسهم بإطلاق الأحكام على بيوت الله بأنها ضرار؛ لما يترتب على ذلك من نتائج وآثار لا تحمد عقباها.

مسـألة أخـرى: هل انحـراف الإمام الراتب للمسـجد يؤثر على المسجد ويحيله إلى مسجد ضرار؟

الجواب: لا يتأثر المسـجد بانحراف إمامـه عن الحق والصواب، ولا يحيله ذلك إلى مسجد ضرار، كما لا يتأثر لو اعتاده أناس من أهل الأهواء والبدع.. حيث يبقى له وصفه وحكمه الذي أنشـئ عليه من أول يوم.

فكـما أن مسـجد ضرار لو صـلى فيه التقـي وكان فيه إمامًـا راتبًا للنـاس لا يرفـع عنه وصف الـضرار وحكمه، كذلك المسـجد الذي أسس على التقوى لو صلى فيه المبتدع المنحرف كإمام راتب للناس لا يرفع عنه وصفه وحكمه كبيت من بيوت الله ينبغي لها التعظيم.

لكن انحراف الإمام على نوعين:

نـوع يكون فيه كافـرًا؛ وذلك عندما يقع في الكفر البواح من غير مانـع شرعي معتبر.. فحينها يجب اعتزال الصلاة خلفه، دون اعتزال الصلاة في المسجد؛ فالصلاة خلفه لا تجوز ولا تصح، بينما الصلاة في المسجد تجوز وتصح.

ونوع يكون فيه مبتدعًا فاسقًا لا يرقى به انحرافه إلى درجة الكفر البـواح، ففـي مثل هـذه الحالة تجـوز الصلاة في المسـجد وخلف هذا الإمام المبتـدع المنحرف وبخاصة إن خشي فوات الصلاة مع الجماعة فحينها تتعين عليه الصلاة خلفه، ولا يمنع انحرافه من ذلك.

وقـال ابن تيمية رحمه الله: كان الصحابة يصلون خلف الحجاج، والمختـار بن أبي عبيد الثقفـي، وغيرهما الجمعة والجماعة، فإن تفويت الجمعة والجماعة أعظم فسـادًا من الاقتداء فيهما بإمام فاجر، لا سـيما إذا كان التخلـف عنهما لا يدفع فجوره، فيبقى ترك المصلحة الشرعية

بـدون دفع تلك المفسـدة، ولهـذا كان التاركون للجمعـة والجماعات خلـف أئمة الجـور مطلقًـا معدودين عند السـلف والأئمـة من أهل البدع)[1]. أ. هـ.

قلـت: مما تقـدم يعلم فسـاد الأحكام والإطلاقـات الجائزة التي يطلقهـا بعـض المتسرعين من الشـباب - عن جهل - عـلى بيوت الله لمجـرد علمهم بـأن فيها إمامًا مبتدعًـا أو عنده بعـض الانحرافات.. بأنها مسـجد الـضرار لا تجوز الصلاة فيها، فيـؤدي ذلك بهم إلى ترك الجمعة والجماعات..!!

وبعـد مناقشـة هذه المسـألة نعود إلى ذكـر ما في صـور الفتنة من خداع وتدليس المنافقين:

هـ- إظهارهم لفسـادهم بمظهر الإصـلاح وإرادة الخير بالأمة، كما قال الله ﷻ عنهـم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة: ١١].

يقول سيد قطب رحمه الله عن هذه الآية:

(إنهـم لا يقفـون عنـد حـد الكـذب والخـداع، بـل يضيفـون إليهـما السـفة والادعـاء: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٣/ ٣٤٣.

obeikandl.com

[البقرة: ١١]، لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان يقولونها، لأن الموازين مختلة في أيديهم.

ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم، والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم؛ لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية[1] ا. هـ.

يتحدث الأستاذ إبراهيم التركي عن حجج منافقي زماننا اليوم في تسويق مشاريعهم الإفسادية وادعائهم في ذلك الإصلاح، فيقول:

(من ينخدع بحجج حزب النفاق في تسويق مشاريعهم الإفسادية ليته يتذكر قول منافقي مسجد الضرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، بحجة ملابسها الداخلية خلطوها بباعة وملاك رجال أجانب، وبحجة حاجتها ولتفادي السائق الأجنبي حققوا وصولها إليهم وخلع الحجاب، وبحجة الرياضة والصحة عروها للألومبياد.

وبحجة العمل خلوا بها في المؤسسات، وبحجة تعليمها بعثوها للكفار لتقتدي بهم فترجع قدوة للبنات، وبحجة التعليم الجامعي أو الإعادة أجبروها على التصوير.

(١) في ظلال القرآن عند الآية (١١) من سورة البقرة.

وبحجة الخلاف حرضوها على كشف وجهها، وبحجة مشاورتها صدروها بالشورى، لتكون قدوة بسفورها ومطالبها وبحجة اتفاقيات دولية نفذوا السيداو الإفسادية.

وبحجة عدم الطرد من الاتحاد الرياضي الدولي أشركوها في الأولومبياد وبحجة الضوابط الشرعية أقحموها في ميادين الاختلاط والخلوة والسفور.

وبحجة الرفق بالأطفال أقحموها في تعليمهم كخطوة للاختلاط في التعليم، ووفق مخدر الضوابط الشرعية أظهروها سافرة في الشورى لتكون تشريعًا للاختلاط.

وبحجة حرية الرأي أباحوا كتب الإلحاد وروايات الفاحشة، وبحجة إعادة تأويل النص حرفوا بعض الشريعة، وبحجة نقد العلماء يهدمون الدين بالسخرية.

لكنك لن تجد حزب النفاق يطالب بإعالة الفقيرة ولا بطبيبة تولدها ولا بخياطة لملابسها ولا بنفقة لتربيتها لأبنائها ولا برعاية حقوق الأرامل والمطلقات ولا بإطلاق سراح معتقلات الرأي.. إلخ.

إن شدة موقف النبي ﷺ من منافقي مسجد الضرار وهدمه لمسجدهم يبين خطورة الستار الديني لحزب النفاق ومن يتسترون به من بعض المنتسبين إلى العلم في تبرير مشاريعهم شرعيًّا[1].

(١) نقلاً عن موقع المختصر.

obeikandl.com

و- ومما يلحق بالصورة السابقة من صور الخداع والتلبيس ما يقوم به منافقو زماننا من تحريف لنصوص الشريعة وتأويلات باطلة لها في تسويغ فسادهم ومواقفهم الجائرة؛ فهم مع جهلهم بأحوال الشريعة نراهم يخوضون فيها بلا علم إلا ما أشربوا من هواهم؛ فنراهم يسوغون الترخص بل التحلل من الشريعة بقواعد التيسير ورفع الحرج، وتغير الفتوى بتغير الحال والزمان.. إلى آخر هذه القواعد التي هي حق في ذاتها، لكنهم خاضوا فيها بجهل وهوى فاستخدموها في غير محلها وبدون ضوابطها فهي حق أريد بها باطل.

ومع جهلهم بالشريعة وظهور القرائن التي تدل على خبث طويتهم، إلا أن هناك من ينخدع بهذه الشبه والتحريفات الباطلة، ومن عجب أمر القوم أنهم يرفضون الحكم بما أنزل الله ﷻ والتحاكم إليه، ولا يذعنون له، ومع ذلك نراهم في أحيان قليلة يرجعون إلى بعض الأدلة الشرعية ليمرروا ويبرروا من خلالها بعض فسادهم أو مواقفهم الباطلة؛ وإلا فما حاجتهم إلى الشرع في هذه المرة وهم كانوا يكفرون به من قبل؟ إنه الهوى والخداع والتلبيس على الناس، قال تعالى في فضح هذا الصنف من الناس: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

فينبغي لكل مسلم أن يحذر من شبه المنافقين وخداعهم، وأن يقول لهؤلاء الذين يسوغون فسادهم بتحريف الأدلة الشرعية: ادخلوا في السلم كافة، وحكموا في الناس شرع الله ﷻ، وارفضوا ما سواه؛ أما أن تنحوا شرع الله ﷻ عن الحكم حتى إذا كان لكم هوى في تمرير فسادكم بشبهة دليل رجعتم إليه؛ فهذا الذي قال الله ﷻ عن أهله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ز- موالاة المنافقين للكفار، وبخاصة اليهود والنصارى، والإعجاب بنظم الغرب وتقاليده، وفتح الباب لفسادهم وأفكارهم. وهذه من أعظم فتن المنافقين التي طمت وعمت في أكثر بلدان المسلمين، مستخدمين في ذلك الخداع والتلبيس على الناس في ذلك بدعوى المداراة وتحقيق المصلحة ودرء المفاسد.. إلى آخر هذه التأويلات التي يخادعون بها الناس لتسويغ توليهم للكفار؛ وقد ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم أن هذه صفة لازمة للمنافقين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وقال ﷻ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ

ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

ح- خداعهم لبعض المتحمسين لشرع الله وتطبيقه؛ وذلك بدعوتهم إلى مشاركات وطنية ومجالس نيابية يتعاون الجميع فيها على ما فيه صالح الوطن والمواطن كما زعموا! فيستجيب بعض الدعاة لهذا، وتجمعهم مع المنافقين الرافضين لشرع الله ﷻ مظلة واحدة، فيعرض الإسلاميون فيها مطالبهم كما يعرض العلمانيون والرافضة والشيوعيون مطالبهم الكفرية، ومعلوم ما في ذلك من مداهنة وتعاون على الإثم والعدوان، واستجابة لداعي الخداع والتلبيس الذي يتولى كبره المنافقون الذين يريدون من استجابة الإسلاميين لهم إضفاء صفة الشرعية على مجالسهم ونظمهم التي يحكمون بها؛ ومن ثم يتخدر الناس ويستنيم المطالبون بتحكيم شرع الله ﷻ ما دام أن للمسلمين صوتًا في هذه المجالس النفاقية الماكرة، ويا ليت أن هناك مصلحة قطعية يمكن تحقيقها للمسلمين تربو على المفاسد التي تنشأ من المشاركة. إذًا لهان الخطب! لكن الحاصل من هذه التجارب هو العكس؛ حيث إن المستفيد الأول والأخير هم العلمانيون المنافقون.

وقد لا يكون المشارك من المسلمين غافلًا عن هذا الخداع، ولكنه يدخل بغرض إقامة الحجة والدعوة إلى تطبيق الشريعة ومعارضة كل ما يخالفها، ولكن هل هذا ممكن؟ وهل يسمح أهل الكفر والنفاق بذلك؟!!

الذي يغلب على الظن أن أعداء الشريعة لن يسمحوا إلا بالكلام فقط؛ وإذا تجاوز الإسلاميون ذلك إلى العمل، وتجاوزوا الخطوط الحمراء المرسومة لهم جاء دور الحديد والنار؛ وما تجربة الجزائر وحماس ومصر عنا ببعيد.

٣- فتنة المنافقين واختراقاتهم للصف الإسلامي:

وهذا شأن المنافقين في كل زمان؛ فعندما تخفق جهودهم في الوقوف في وجه الخير والصلاح، وعندما ينشط الدعاة والمجاهدون ويظهر أثرهم في الأمة؛ فإن المنافقين يلجأون إلى وسيلة ماكرة وفتنة شديدة، ألا وهي التظاهر بالحماس للدعوة والدخول في أوساط الدعاة والمجاهدين مظهرين التمسك والغيرة على الدين، والحرص على العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، حتى ينخدع بكلامهم المعسول بعض الطيبين من قادة الدعوة والجهاد، فتحصل الثقة بهم، حتى إذا تمكنوا من مراكز التوجيه والقيادة بدأوا فتنتهم الكبرى على الدعوة والجهاد مع استمرارهم في إظهار الخير والحماس

لهـذا الديـن، وتسـويغ مـا يقومون بـه من الممارسـات بالحـرص على مصلحة الدعوة وتميزها وصلابتها.

ومن أخطر صور الفتن التي تنشأ من هذا الصنيع ما يلي:

أ- فتنة التفريق وإثارة العداوات بين دعاة الإسلام والمجاهدين:

وهـذه مـن أعظم فتـن المنافقـين داخـل الصف الإسـلامي وفي أوسـاط الدعـوة إلى الله ﷻ، وقـد فضـح الله ﷻ المنافقـين الذيـن بنوا مسـجد الضرار، وأظهر أهدافهم الخبيثة بقوله تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧].

قـال المفسرون لهذه الآية: (لأنهم كانوا جميعًا يصلون في مسـجد قباء؛ فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم، فيؤدي ذلك إلى الخلاف وافتراق الكلمة [١] ا. هـ.

وهـذا الضرب من الفتن لا يحتاج إلى تدليل، فالواقع المر شـاهد بذلـك، ومـع أن للافتراق أسـبابًا كثـيرة كالجهل والهـوى.. إلخ؛ إلا أن أثـر المنافقـين الذيـن يدخلون في صفـوف الدعاة لا يجـوز إغفاله والتهوين من شـأنه، وكون الفرقة تحصل بـين أهل طريقتين مختلفتين في الأصول، فإن هذا الأمر واضح ومعقول ومقبول.

(١) انظر تفسير البغوي ط. دار طيبة ٤/ ٩٣.

أما أن يفرق أهل الطريقة الواحدة – طريقة أهل السنة والجماعة وطريقة سلف الأمة – فهذا أمر لا يعقل ولا يقبل، ولا يكون إلا وهناك يد خبيثة خفية وراء هذا الافتراق؛ فينبغي على الدعاة والمجاهدين الحذر من هذه الأيدي والتفتيش عنها وفضحها وتطهير الصف المسلم منها.

ب- فتنة التخذيل والتشكيك:

وهذه أيضًا من أعمال المنافقين المندسين في الصف المسلم، حيث يسعون إلى بث فتنة التخذيل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، وذلك بدعاوى وشبه شرعية خادعة، مؤداها توهين عزائم الدعاة وإضعاف هممهم، وبث الخوف في النفوس من الباطل وأهله، وتهويل قوة الأعداء وخططهم بصورة تبث اليأس في النفوس الضعيفة. قال الله ﷻ عن أمثالهم: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧].

يقول الإمام البغوي رحمه الله عند تفسير هذه الآية:

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ ﴾ يعني المنافقين، ﴿فِيكُم﴾ أي معكم، ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾أي فسادًا وشرًا، ومعنى الفساد إيقاع الجبن

والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ أسرعوا، ﴿خِلَالَكُمْ﴾ وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة، ونقل الحديث من البعض إلى البعض.

وقيل: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: أسرعوا فيما يخل بكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جمع لكم كذا، وإنكم مهزومون، وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ قال مجاهد: معناه وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] .ا. هـ.

ج- فتنة الإيقاع بالدعوة والدعاة:

لا تقف مساعي المنافقين في إيصال الشر والأذى للدعوة وأهلها عند حد.

فمن هذه المساعي الخبيثة التي يقومون بها داخل صفوف الدعاة بعد إظهار الحماس وبعد كسب الثقة والسماع لأقوالهم، كما قال تعالى:

(١) تفسير البغوي ٤/ ٥٦.

obeikandi.com

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وتحت ستار الغيرة على الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ﷻ، فإنهم يبدأون في دفع بعض الدعاة إلى مواجهات مع الباطل وأهله والزج بالدعوة في أعمال خطيرة، تفتقد المستند الشرعي من جهة، وتؤدي بالدعوة وأهلها إلى الضمور والانكماش من جهة أخرى، إن لم يقض عليها قضاء مبرمًا، وهذا هو ما يريده المنافقون المخادعون الحاقدون.

٤- فتنة المنافقين بنشر الشبهات والشهوات:

وهاتان الفتنتان من أعظم وسائل المنافقين في نشر فسادهم والتلبيس على الناس، فهم بعد أن رضعوا لبان هاتين الفتنتين، وتشبعوا بها، وأظلمت قلوبهم بها، راحوا يستخدمونها في تضليل الناس والترويج لفسادهم وإفسادهم.

وها هو الإمام ابن القيم رحمه الله يفصل في خطر هاتين الفتنتين، فيقول: والفتنة نوعان: فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من

الذيـن قال الله تعالى فيهـم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقد أخبر الله ﷻ أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهـذه الفتنة مآلهـا إلى الكفر والنفاق، وهي فتنـة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال.

ولا ينجـي من هـذه الفتنـة إلا تجريد اتباع الرسـول وتحكيمه في دق الديـن وجله، ظاهره وباطنـه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، وما يثبته لله من الصفات والأفعـال والأسـماء وما ينفيه عنه، كما يتلقـى عنه وجوب الصلوات وأوقاتهـا وأعدادهـا ومقاديـر نصـب الـزكاة ومسـتحقيها ووجوب الوضـوء والغسـل من الجنابة وصـوم رمضان، فلا يجعله رسـولا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسـول في كل شيء تحتاج إليه الأمـة في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنـه ولا يؤخذ إلا منه، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرجَ عنها فهو ضلال، فإذا عقد

قلبه على ذلك وأعرض عما سواه ووزنه بما جاء به الرسول فإن وافقه قبلـه لا لكون ذلك القائـل قاله، بل لموافقته للرسـالة وإن خالفه رده ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسـد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة.

وأما النوع الثاني من الفتنة: **ففتنة الشـهوات**، وقد جمع ﷻ بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾[التوبة: ٦٩].

أي تمتعـوا بنصيبهم من الدنيا وشـهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾[التوبة: ٦٩]، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشـار ﷻ في هذه الآيـة إلى ما يحصل به فسـاد القلوب والأديان مـن الاسـتمتاع بالخلاق والخـوض بالباطل، لأن فسـاد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما والاها. والثاني: فسق الأعمال.

فالأول فساد من جهة الشبهات. والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه[1].

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٥، ١٦٦.

obeikandl.com